المحاضرة العاشرة :جمهور الحداثة ومابعد الحداثة

الحداثة وما بعد الحداثة.. إنّها حديثُ العصر ومجالٌ واسعٌ للجدل وصراعٌ فكري ومادي، ومن أهم القضايا التي أثيرت نتيجة بلوغ الإنسان مرحلة التطور الفكري. ففي الوقت الذي كانت فيه مجتمعاتنا تعيش حالة الفوضى وتعاني من الانهزامات المتتالية بعد خروج المسلمين من الأندلس، قام الأوروبي بنهضته التي غَيَّرَ فيها مفاهيم الإنسانية، ولم يكتفِ بالحداثة والتحديث بل تجاوز إلى ما بعد ذلك.

- فما الحداثة؟
- ولماذا جاءت "ما بعد الحداثة" أصلا؟
- وما الأثر الذي تركته هذه المفاهيم الكبرى في عالمنا اليوم؟

تعود الجذور الأولى للحداثة إلى القرن الخامس عشر، عند اكتشاف أميركا وقيام الألماني غوتنبرغ باختراع الآلة الطابعة التي قلبت الذاكرة الإنسانية، ونمت الاتجاهات الأيديولوجية والأدبية والعلمية نتيجة التبدل الذي طرأ على نظم الحياة في أوروبا، وقام المجتمع بالخروج عن السلطة الروحية للكنيسة، وتأسست الحداثة على فكرتين: فكرة الثورة على التقليد، ومركزية العقل.

أما مفهوم "ما بعد الحداثة"، فقد نشأ كردِّ فعل على الحداثة ونظرياتها الكبرى، والإخفاقات الحضارية التي أفرزها عصر الأنوار في أوروبا. ويرى أرنولد توينبي أن بداية ما بعد الحداثة كان في سبعينيات القرن التاسع عشر، ويعيد كثير من الباحثين نشأة المفهوم إلى الفيلسوف الألماني نيتشه الذي نادى بموت الإله (الإنسان المقدس)، وليعلن أنه لا حقيقة مطلقة طالما أن هناك اكتشافات جديدة خارج سيطرة الإنسان، فتلك الفلسفة وقفت ضد كل ما هو عظيم وخاصة مسألة مركزية الإنسان والعقلانية

وفي مفهوم جمهور الحداثة وجمهور مابعد الحداثة إسقاط مفهوم الجمهور في الحداثة والجمهور في مفهوم مابعد الحداثة.

وقد أسهم التطور الكبير الحاصل في عالم التكنولوجيا والإعلام في المجتمعات الغربية في لعب الدور الكبير في نشوء هذه الحركة، فماذا أضافت تلك الحركة على مرحلة الحداثة لتصبح مُبدعة، وتُحدِثُ تحولاً فكرياً في عقلية العالم الغربي لينقد حداثته؟

نادت الحداثة بالعقلانية وحرية الإنسان والعلمانية، وبترتيب الحياة ترتيباً زمنياً من خلال المعيارية التي يستمدها الإنسان من ذاته ومن الطبيعة، واعتبرت الإنسان جوهر كل

شيء، وفي عصر الأنوار تضاعف وميض الحداثة وبريقها في نظريات كانط وأعماله الفكرية. أما ما بعد الحداثة فأقامت سياستها على التشكيك والرفض القاطع للمقولات المركزية التي تعارف عليها الفكر الغربي، وظهرت أفكار جديدة لم تكن مطروحة من قبل، مثل تفتيت التاريخ والجنوسة والنظريات النسوية والنقد الذاتي وما بعد التاريخ وما بعد الاستعمار، والتسوية الشاملة بين جميع الكائنات الإنسية (النساء، الرجال، الفجرة، الشواذ جنسيا)، فهو عالم المابعديات عالم ما بعد التاريخ وما بعد الإنسانية وما بعد الاستشراق. لكن في الواقع، لا ترفض ما بعد الحداثة عطاءات الحداثة، بل تعيد إنتاجها بصورة تتساقط معها مختلف التناقضات، وقد رفضت النظريات الشاملة كالتي جاءت بها الماركسية، وركزت على التاريخ المجهري في حياة الناس.

كيف يمكن الفصل بين "الحداثة" و"ما بعد الحداثة"؟ .

لم تستطع الحداثة بنزعتها العقلية ومغامراتها العلمية أن تحقق الغايات التي كانت في أصل وجودها، وفي ذلك يقول تورين: "إنَّها تطورت ضد ذاتها"، وخضع الإنسان للعقل على حساب مشاعره وقيمه الإنسانية، وصارت العقلانية قهرا واستلابا، وفي نهاية الأمر أفرزت الحداثة حربين عالميتين، فهي لم تطور العقلية ولم تسهم في الحرية التي أرادتها للإنسان ككل، فهم في الحقيقة أرادوا الحرية للإنسان الأوروبي، وسلك الحداثيون مع الأمم الأخرى مسلك الغطرسة والتسلط، وفي هذا السياق "صفق عظيم مفكري الحداثة في أوروبا (هيغل) لما سمَّاه بانتصار الروح الأوروبية وعودتها إلى مجدها عند احتلال فرنسا للجزائر"، وبالتالي يمكن القول إنَّ الحداثة فقدت قدرتها على تحرير الإنسان بعد أن أدت دورها التاريخي في نهضته.

ويعدُّ الفيلسوف الفرنسي ليوتار من كبار المفكرين الذين وضعوا الحداثة في قفص الاتهام، وأعلن ميلاد عصر ما بعد الحداثي في كتابه سنة 1979، وقد شكلت الانتقادات المنهجية التي وجهت إلى الحداثة الأرضية العلمية التي نما في تربتها مفهوم ما بعد الحداثة، وقد جاء هذا المفهوم بقيم إيجابية وأخرى سلبية هي حركة تحررية من عالم الهيمنة، حاربت ثقافة النخبة بالثقافة الشعبية، وانتقدت الخطابات الاستشراقية ذات الطابع الاستعماري، وآمنت بالاختلاف وتعدد الهويات، كما أنها أزالت التناقض بين الجانب العقلي والروحي في الإنسان، وبشّرت بعالم من الانفتاح الواسع، وأسست لمناخ منفتح على الإبداع والتجديد في مجالات الحياة، إلا أنها اعتمدت نظريات فوضوية دون أن تقدم للإنسان البديل العملي، وأصبح من الصعب تطبيق تصورات ما بعد الحداثة لغرابتها وشذوذها.

خل المجتمع والعائلة الواحدة، وسادت ثقافة اللاأخلاق واللامبالاة.

أين نحن والجمهور من الحداثة وما بعدها؟

إنَّ الحداثة الغربية هَزَّت عالمنا ودخلت بيوتنا ومدارسنا وشغلت أفكارنا، وتمثلت في شعاراتنا ونمط الإدارة والحكم عندنا. ففي منتصف القرن التاسع عشر، استيقظنا على فارق الإمكانات والآليات بين الغرب الأوروبي والمجتمعات العربية والمسلمة، فظهرت تيارات ونخب متعلمة بحثت في أصول النهضة والحداثة وعواملها، وعاشت في الغرب حينا واستفادت من المدارس الغربية، ونقلت أفكارا تنويرية أفاضت على المجتمعات العربية في إطار "أهلنة" تلك المعارف، منهم الشيخ رفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني، وقد نقلوا كثيراً من الأفكار الحداثية إلى الإطار الإسلامي، إلا أن ثقافة مجتمعنا شغلها التحديث عن الحداثة، وبقيت عقولنا كما هي عليه. وظل السؤال عن كل أسباب تقدم الغرب وتأخر العرب والمسلمين ملحا على النخبة الإسلامية بصفة عامة والنخبة العربية بصفة خاصة، لما تقدم الغرب وتأخر المسلمون، وظهرت أفكار إصلاحية واسعة على هذا الأساس.

قد جاءت الحداثة إلينا كلحظة عنيفة، لأن حداثتنا بقيت نقلاً نظرياً للأفكار، ولم تجر حداثة للعقول، وبقيت الفكرة التي تسود في أذهاننا حول ذلك الآخر الغربي، وبنيت كل افتراضاتنا في علاقاتنا مع الغرب على قاعدة أن الأوروبي هو العدو والمستعمر والانتهازي والمتسلط، فبقينا نعيش على فتات الحداثة وقشورها، ولم ندرك حتى الآن أن الحداثة ليست أشكالا وشعارات، بل هي صيرورة تاريخية واجتماعية وفكرية، وما زلنا نعيش عالم الأوهام والتصوف والخوف من الآخر، وكان هذا من أبرز أسباب تأخرنا، ولم ندرك أن حياة الأمم هي دورة حضارية (كما قال ابن خلدون في مقدمته)، تنتقل من أمة لأخرى عندما تفقد الأولى عوامل نهوضها وتأخذ الثانية بمقومات وأسباب ذلك النهوض.